أقصوصة لأزعة من أناطول فرانس

مشعوذ المـــادونا[1]

للأستاذ دريني خشبة

كان يعيش في أيام الملك لويس مُشَعْبِذٌ فقير من كومپين يقال له بَرْنَابَا ، وكان لا ينى يذرع أقطار الأرض ليعرض على الناس ألعابه الخارقة التى كان يبهرهم بها فى خفة وحذق وبيد صناع . وكان ينتهز أيام الصحو فينتحي ناحية فى الميادين العامة ، ثم يفرش على الأرض قطعة من بساط خَلَقٍ لم يكن يفارقه أينما سار ... وبكلمات يقولها ، وإشارات وحركات علمه إياها مشعبذ أكبر منه سناً يجتمع حوله أطفال وغلمان ومتسكعون ، ثم يسوق الفضول غيرهم فيكون فى حلقة من الناس من كل صنف يستهويهم بشعبذاته ، ويثير عجبهم بالبراعة الفائقة التى يقف بها سُكُرُّجَةً[2] من صفيح مطلى على أرنبة أنفه ، وهو مع ذاك يميل ويميد ويتخلج ... فاذا فرغ من هـذا انقلب فى الهواء فوقف على رأسه ويديه ، ثم راح يرسل فى الهواء كرات ستًّا صغيرة من نحاس أحمر لامع ، فيتلقاها بقدميه الماريتين فى مهارة خارقة ، بحيث لا تسقط منها واحدة حتى يستوى ؛ وكان الناس يختلفون فى أمر هذا الشعبذ ، ولكنهم سرعان مايتفقون على أنه أُلْعُبَان داهية حين يتقوّس ويتقوس ، حتى يعمل بجسمه المنقلب عجلة من لحم ، ثم يرسل فى الهواء اثنتى عشرة سكيناً[1] مزهفة فيظل يتلقفها بيديه فى سرعة تخطف البصر وتُطلق أيدى النظارة بالتصفيق ، وحناجرهم بالهتاف الطويل ، ثم يعطرون بساطه الخلق بالدّوانق[2] والدريهمات

ولم يكن برنابا مع ذاك بدعاً من الناس ، فلقد كان واحداً من هذه الآلاف المؤلفة التى تكتسب الكفاف من العيش بعرق جبينها ، وكان يشقى كما يشقى إخوانه البائسون فى كل زمان وفى كل مكان ، بل لقد كان نصيبه من شقوة الحياة ، ومضض العيش ، والأوزار التي كتب فى الأزل أن تنقض ظهور الناس جيلاً عن جيل عن أبيهم آدم ، كبيراً مضاعفاً ...

ولم يكن يستطيع أن يصل عمله الشاق المضنى فى كل وقت ، فهو واحد من مئين من الأحياء التى يعج بها العالم ، ويزخر بها وجه الأرض ، والتى تحتاج إلى حرارة الشمس ، ودفء الهواء ، لتدب الحياة فيها وتنتعش ... لذلك كان الشتاء أكبر أعدائه ، إذ كان يقاسيه كما تقاسيه الشجرة التى نفضت أوراقها ، وبدت خلاله نِصفَ ميتة ... وكان الصقيع الذى يغطى وجه الأرض يقضه ويزعجه ، ويثلج يديه وقدميه ، فتسقط الكرات وتجرحه السكاكين ، ولكنه مع ذاك يبسم ويهش ، متشبها بالصُّرْصُر المذكور فى قصة مريم الأفرنسية ، والذى يشدو ويرقص جَوْعَانَ من ... البرد ! ! أو من الجوع ... أو منهما معاً ! ! وكان لسذاجة قلبه ، وقناعته ، يقاسى فى سكون وصمت . فلم يفكر مرةً فى كيفية توزيع الثروة بين الناس ، ولا فى علة هـذا التفاوت الكبير بين أقدار البشر ، وكلهم من آدم ، وآدم من تراب ... لا ... لم يفكر برنابا الطيب فى شئ من هذا ولا ذاك ، بل كان مؤمناً ساذج الإيمان ، وكان يعتقد أن الخير الذي فاته فى هـذه الدنيا لابد مواتيه فى الآخرة ، وأن سيئات

(١) المادونا لقب يطلقه مسيحيو أوروبا على مريم البتول . ولأناطول فرانس قصص طويلة وقصيرة كثيرة العدد ، ولكن هذه الأقصوصة تفردت من بين قصصه بأنها أصدق صورة لفن الكاتب العظيم الذى مات وهو يسخر من العالم ومن فيه

(٢) السكرجة (بضم وبضم وضم مشدد) : آنية بين القصعة والطبق

(١) سكين مذكر ومؤنث ويغلب عليها التأنيث فى مصر

(٢) الدانق بفتح النون وكسرها سدس الدرهم

هذه الحياة ستحتسب فى صحيفته حسنات يوم يوفى للناس حسابهم.

ولم يكن برنابا من هؤلاء اللبّقين الأريبة الذين باعوا أنفسهم لسيد الأبالسة ، بل كان يؤمن بالله ولا يكفرُه ، ويلهج لسانه دائماً باسمه ، وكان يحيا حياةً أمينةً طاهرة كلها تقوى وعفة ، ولم تحدثه نفسه مرة أن يمد عينيه إلى ما متع الله به جاره من زوجة جميلةٍ حلوةٍ مفتان ، مع أنه لم تكن له زوجة حلال ... وكان يؤمن بخطر المرأة على شباب الرجل وعنفوانه ، وكانت له أسوة بما حدث من ذلك لشمشون كما هو مشهور مأثور

وهكذا لم يك برنابا بهيميًّا ولا شهوانيا ، بل هو لم يفكر مرة فى هذه اللذة الدنسة التى تستعبد أمثاله من المشعبذين ، بيد أنه إن سلم من ذاك ، فلقد كانت تأسر لبّه الخمر ، وكان يرى فيها منجاة من فتنة النساء والوقوع فى كيدهن ؛ ولم يكن برنابا مدمناً مع ذاك ، وإن أحب الخمر وصبا إليها من كل قلبه ، لا سيما إذا كان الفصل شتاء والطقس بارداً زمهريرا ... فإذا استثنينا شغفه بالخمر وجدناه رجلاً صالحاً يخاف الله ويبتهل إليه ، وتملأ قلبه محبة العذراء ، مريم الطاهرة البتول ، التى كان يحبب لها ويصفيها عبادته ، ويركع بين يَدَىْ صورتها كلما دخل كنيسة فيصلى هذه الصلاة : « مولاتى ! أبتهل إليك أن تباركي حياتى فى هذه الدار حتى يتأذّن الله فيقبضنى إليه ، فإذا فعل ، فاشفعى لى عنده أن يفيء علىّ من نعيم الخلد . آمين ! »

* * *

وانطلق في أمسية يذرع الطرقات غِبَّ مطرٍ وابلٍ حزيناً واجماً كاسف البال ، وتحت إبطه كُراه[1] ومِزْقة البساط وفيها سكاكينه ، وكل همه أن يجد خاناً يؤويه فيقضى فيه ليله على الطوى ، لم يذق عشاء ولم يتبلّغ بلقمة ... فبينما هو هائم على وجهه هكذا ، إذا به يرى راهباً يذرع الطريق مثله ، وفى مثل الجهة التى يسير فيها ، فحياه فى أدب وظرف ، ورد الراهب تحيته بأحسن منها ، ثم قال يحدثه :

— مرحى أيها الرفيق ! مالك مُسربَلاً بهذه الثياب الخضر من ناصيتك إلى إخمصيك ... أذاهب أنت لتمثل البلياتشو[2] فى ملهاة خرافية ؟

— كلا والله أيها الأب ! إن اسمى برنابا ، وحرفتى الشعبذة وحبذا لو كان عملى أن آكل متبطلاً ، وأسمن وأستريح من عناء الحياة !!

— أتعنى ما تقول أيها الأخ برنابا ! حذار من أن يكون فى ستور كلامك لَمْز أو كناية ! فإن أشرف عمل فى هذه الحياة الدنيا هو أن تبيع نفسك لله ... الرهبانية يا برنابا ... إن الراهب ما بين يسبح بحمد الله ، وباسم العذراء ، وبأسماء القديسين ! ألاَ وإن حياة الراهب أنشودة سرمدية ليسوع المسيح !

وقال برنابا يجيبه : « إنى أقر أننى تكلمت كما يتكلم الجهلاء أيها الأب ، فعفواً ومعذرةً ... إن بيننا لَبَوْناً شاسعاً وفارقاً عظيما ، وإنه إن يكن لشعبذاتى قيمتها عند الناس ، فكذلك نُسُكُك وتَرَهُّبُك مع فارق ما بين الصناعتين ، لأنك مهما عجزت عن رقصة أقوم أنا بها فى منتهى ما تتصور من سهولة ويسر ، ومهما عجزت عن أن تقف سُكُرُّجَتى هذه على أرنبة أنفك وتميل كما أميل ، وتميد وتتخلج ، فإن لرهبانيتك مع ذلك قيمتها التى لا تسامى قيمة عملى الحقير وصنعتى التافهة ... أيها الأب الكريم ! تالله إنه ليس أحب إلىّ من أن أنقطع مثلك للعبادة فألهج بذكر الله ، وأستقل عن العالمين ليتحد قلبى بالبتول المقدسة ... العذراء الطاهرة التي كرست نفسى وحياتى لعبادتها ومحبتها ! وإنه ليس آثر عندى من أن أهجر حرفتى التى عرفت بها فى ستمائة قرية وقرية ، من سواسون إلى بوفيه ، لكى أذهب إلى الدير ، وأخلص للتأمل والعبادة والتَّرَهُّب ! »

ووقرت سذاجة المشعبذ فى فؤاد الراهب ، واستشف فيه نفساً تقية وقلباً صالحاً ، من تلك القلوب النقية التى قال المسيح فى أصحابها : « عليهم السلام فى الأرض » فقال يجيبه : « إذن هلم معى أيها الصديق برنابا وسأدخلك الدير الذى أنا رئيسه ، وإنى أسأل الله الذى هدى مريم المصرية فى مهامه الصحراء أن يوفقنى فى هدايتك إلى ما فيه خلاصك »

وهكذا أصبح برنابا « البلياتشو ! » راهباً !

* * *

وبهره أن يرى إخوانه الرهبان يخلصون فى محبتهم للعذراء إخلاصاً عجيباً ، ويكرسون حياتهم ونبوغهم وجميع ملكاتهم

(١) كرى وزان ضحى وكرين بالضم والكسر وكرات جموع كرة

(٢) البلياتشو كلمة أعجمية يرادفها البهلول بالعربية أى الضحاك

لخدمة مجدها وتخليد ذكراها ... فهذا رئيس الدير يؤلف فى فضائلها المؤلفات ، ويشيد فيهن حسب السُّنَّة بأياديها على العالمين وهذا الأخ موريس يتناول مسودات تلك المؤلفات فيسطرهن بيده النابغة الصناع ، وبخطه الرائق الشائق على رقوق[1] وكواغد ثم هذا الأخ الاسكندر ينقش فيهن نقوشه ، ويرسم تصاويره ، فيجعل مليكة السموات جالسة على عرش سليمان ، وقد ربضت عند قدميها أربعة أسود ضياغم تحرسها وتسهر عليها ، ومن فوق الهالة التى تنعقد بالنور حول رأسها ترف سبع حمامات وُرْق هُن هدايا روح القدس السبع : الخوف ، والتقوى ، والمعرفة ، والقوة والعدالة ، والذكاء ، والحكمة ، وجلس معها ست عذارى حسان ذوات شعر مُنْدَوْدِن ذهبي : الدعة ، والكبرياء ، والاعتزال والاحترام ، والعذرية[2] ، والطاعة ... هذا وقد سجد عند قدميها شبحان عاريان يشعان نوراً ولألاء ، وكانا يمثلان الأرواح الخاطئة ، وكانا يتوسلان إلى العذراء أن تدرك أصحابهما برحمتها التى وسعت كل شيء فتمنحهم الخلاص

وقد صور الأخ الاسكندر فى صحيفة أخرى أمنا حواء فى حضرة العذراء البتول حتى يرى القارىء كيف تتمثل الخطيئة والفداء فى حواء الذليلة ومريم السماء !

ومن أحسن صوره أيضاً صورة بئر المياه الحية ، وصورة النبع ، والزنبقة ، والقمر ، والشمس ، والجنة المغلقة ، وما إلى ذلك مما ورد ذكره فى نشيد الإنشاد ... فهذه ، وصورتا بوابة السموات ، ومدينة الإلٰه ؛ كلها صورت فى محبة العذراء ورسمت باسمها

وكان الأخ ماربود كذلك من أطفال مريم المخلصين ... وكان ما يفتأ ينحت التماثيل من الحجارة فتتشعث لحيته وشعره وأهدابه بغبار الرخام الأبيض ، وتنتفخ عيناه وتهمر مدامعه ؛ وبالرغم من سنه المتقدمة ، وشيخوخته الضعيفة ، فلقد كان ماربود يصل ليله بنهاره فى عمل التماثيل فى حب مريم لتباركه ، وتثبت خطاه نحو الأبدية ... وكان يمثلها محمولة فى محفة ، وتتألق على جبينها هالة من أغلى اللآلئ ... وكان ينصّب أكبر النصب فى تجميد ثنايا ثوبها من فوق قدميها ليسترها ... القدمين الحبيبتين قدمى العذراء ، اللتين قال فى صاحبتهما النبي : « حبيبتى أشبه بجنة مغلقة ! »

وكان يمثلها أحياناً طفلة رائعة فينانة ، تكاد تنطق فتقول : « يا يسوع ! أنت إلٰهى ! »

وكان فى الدير رهبان شعراء ما ينون ينظمون فى العذراء المقدسة أغانيهم باللسان اللاتينى ... وكان فيهم زجّال پيكاردى ينقل أغاريدهم إلى اللسان العامى الرشيق

* * *

شهد برنابا هذه الحماسة التى جعلت إخوانه الرهبان يتنافسون في خدمة العذراء وتقديسها ، وتكريس كل ملكاتهم لعبادتها بالقلب وبالذهن وباليد وباللسان ؛ فحزن حزناً شديداً ، وراح يندب حظه ، ويبث جهله المطبق وسذاجته وقلة معرفته ، وكان يمشى مرة فى ظلال الحديقة الصغيرة التى يحضنها سور الدير ، فجعل يتفجع ويقول : « وا أسفا لشد ما يحزننى ألا أستطيع أن أعبد عذرائى تلك العبادة القيمة التى يؤديها رفاق الرهبان مع ما بذلت من حبي لها ، وبرغم ما وقفت كل تقديسى عليها ! ما أتعسنى إذن يا أم الإلٰه ! أنا هذا الجاهل الغبي الذى يعبدك بلسان لا يبى إلا أتفه الأدعية وأحقر التسبيحات ، وهو مع ذلك يرددها لا كما ينبغى ... ويلى من غبي جاهل لا قدرة له على فن جميل ، ولا عمل من ورائه طائل ! أين أنا مما ينحت الناحتون للعذراء البتول ، وما يصور المصورون ، وما ينظم أولئك الشعراء من أغراد وأوراد ! وا أسفاه ! إنى لا أملك من كل ذلك قليلاً ولا كثيراً ! »

وهكذا ظل برنابا يتفجع ويتألم

وجلس مرة يصغى إلى رفاقه بينما كانوا يتلهون بالحديث فيما بينهم ، فسمع أحدهم يقص حكاية الراهب الذى عاش عمره جميعاً لا يستطيع أن يعبد العذراء إلا بهذه العبارة القصيرة المقتضبة : سلام على مريم ... سلام على مريم ... يرددها فى صباحه وفى مسائه ، ولا يفتر عن ترديدها لسانه ... وكان إخوانه يزدرونه لجهله وقلة عرفانه ، فلما مات ، وأقبلوا عليه ، رأوا ، ويا ما أغرب

(١) جمع رق بكسر أو فتح : جلد كان يكتب عليه قديماً ومثله كاغد

(٢) لم نجد فى العربية مصدرا من (عذراء) وهى الحالة التى تكون فيها الفتاة هكذا ، فاستعملنا هذا المصدر وهو مرادف Virginity أو Virginité

ما رأوا ، أربع[1] وردات نواضر قد خرجت من فمه ، فعرفوا أنهن برزن تحية تقديساً للأحرف الأربعة التي يتركب منهن اسم العذراء ... وهكذا تقدّس الراهب بعد موته ، وبعد ما لقي من ازدراء رفاقه في الحياة الدنيا ...

ولما سمع برنابا هذه الحكاية ابتهجت نفسه وغمر السرور قلبه وعظمت ثقته في مريم البتول الخيرة ... بيد أنه لم يتسل بهذا المثل الجميل ، لأنه كان يود لو استطاع أن يصنع مثل ما يصنع إخوانه من تقديس العذراء بالقلب وباللسان وباليد ... فراح يفكر ويفكر ، ويُعمل ذهنه في الوسيلة التي تُنيله ما يريد ... ولكن ... عبثاً حاول أن يجد برنابا تلك الوسيلة ، فكان كل يوم يمضي يزيد في أحزانه ، ويضاعف أشجانه

ثم استيقظ صبيحة يوم مشرق وقد بدا في وجهه البشر ، وشاع في أعطافه السرور ، فانطلق من صومعته إلى الكنيسة فدخلها ، وأقفل عليه بابها ، ثم لبث فيها أكثر من ساعة من الزمان ، وخرج وقت الغداء فلم يغب طويلا ، ثم عاد إليها ، وأقفل عليه الباب كما فعل في الصباح ...

وظل منذ ذلك اليوم يذهب إلى الكنيسة في مثل هذه الساعة التي لايفكر أحد من الرهبان في الذهاب إليها ، لاشتغالهم بما أخذوا به أنفسهم من كتابة ونسخ وتصوير وتحت ونظم ... وتبدل حال برنابا ، فلم يعد يعاوده وجومه ، وذهب عنه هذا الحزن الذي كان يلازمه دواماً ... غير أن سلوكه المفاجئ قد أثار الغرابة والدهش في نفس رئيس الدير ، الذي كان واجبه يقضي عليه بمعرفة كل ما يعمل رهبان الدير حتى في سرهم ونجواهم ، فصمم أن يعلم من أمر برنابا ما أراد برنابا أن يجعله سراً مكتوماً ...

في إحدى خلوات برنابا ، ذهب الرئيس في صحبة زميلين من أكبر رهبانه سناً ، ليروا ماذا يصنع أخوهم داخل الكنيسة ، ووقفوا يلاحظونه من ثقوب في الباب

ما شاء الله !!

لقد شهدوا الراهب المشعبذ وقد (تشقلب !!) أمام صورة العذراء المقدسة ، بحيث وضع رأسه ويديه على الأرض ، ثم راح يرسل كراته في الهواء ويتلقفها برجليه ، ثم يتحوى ويتكور ، ويرسل سكاكينه المرهفة ويتناولها في خفة ورشاقة بكلتا يديه ، كما كان يصنع في أيامه الخوالي التي أكسبته الصيت والأحدوثة وأطيب الذكر .. ولم لا يصنع ؟ أليس بهذا يضع ملكاته وخبرته الفنية وطول دربته في خدمة العذراء كما يصنع رفاقه ؟ وما يصنع رفاقه غير هذا ؟

لكن رئيس الدير لم يفهم شيئاً من ذلك ، ولم يفطن إلى غرض المشعبذ النبيل ، بل صاح وصاح معه زميلاه ، ولعنوه أشد اللعن بما دنس هذا المكان المقدس واستباح حرمته ! لقد كان الرئيس يعرف أن برنابا رجل ساذج مغفل ، ولكنه ظن هذه المرة أنه قد فقد صوابه ، فاندفع داخل الكنيسة واندفع في إثره زميلاه ليقذفوا به خارجها ... ولكن ! يالله المعجزة ! لقد رأوا الصورة المقدسة تتحرك .. تتحرك ، وتتقدم نحو برنابا .. وقد مدت ذراعها الجميلة النقية ، وراحت تمسح قطرات العرق التي كانت تتصبب فوق جبينه ، بمنديلها الأزرق الحريري

وسجد رئيس الدير حتى مست جبهته رخام الأرض وسجد وراءه زميلاه ، وجعلوا يصلون هذه الصلاة

« مباركون الذين تطهرت قلوبهم وخلت من الخبث ، لأنهم سيرون الله ! »

دريني خشبة

(١) في الأصل خمسة وقد استبدلناها بأربعة لأن أحرف مريم أربعة ، وهن خمسة في الفرنسية وغيرها Maria

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد